القصور المثلى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

للصروح والهياكل العظيمة ، كما للأشخاص والدول شخصيات تشغل مكانها فى حياة الأمم والعصور ، وتؤدى دورها فى الحوادث والسير العظيمة ؛ فاذا ذهبت الدول وفنيت الأجيال بقيت الصروح والهياكل شاهدة بما توالى عليها من الاحداث والمحن تلقى على الماضى نوعا من الضياء القاتم ، وتذكرنا بتلك الأدوار العظيمة التى لعبتها فى سير الدول والشخصيات الذاهبة

وما زالت طائفة كبيرة من هذه الصروح والهياكل العظيمة تزين العواصم الأثرية القديمة ؛ ولدينا فى مصر عدة من الهياكل الفرعونية الخالدة لعبت أدوارها العظيمة فى تاريخ مصر القديمة ، ولكنا لا نتحدث عنها هنا لأنها تقترن بعصور تغيض منا فى ظلمات الماضى البعيد ؛ ولم يبق بمصر من الصروح الاسلامية العظيمة سوى المساجد ، وهى ليست مما نعنى به فى هذا الفصل

وإنما نريد أن نتحدث هنا عن بعض الصروح الأوربية العظيمة التى شهدناها ، والتى تعتبر بما لعبت من أدوار خطيرة فى الدول والعصور التى قامت فيها صروحا « مثلى »

* * *

إن أسماء صروح كاللوفر وفرساى والفاتيكان وقصر الدوجات لا تمثل الهياكل والأبنية العظيمة التى تعرضها هذه الصروح فقط ، ولا تقف أهميتها وروعتها عند النقوش والذخائر الفنية العظيمة التى تحتويها ، ولكن أعظم ما تدلى به هذه الصروح فى نظرنا هو تراثها المعنوى والحوادث والذكريات العظيمة التى اقترنت باسمها

فقصر اللوفر مثلاً يمثل عصوراً بأسرها من حياة الملوكية الفرنسية ويعرض لنا فى أبهائه الشامخة ونقوشه وذخائره طرفا من روعة هذه الملوكية وأيام عظمتها وازدهارها ؛ هذا جناح هنرى الثانى ، وهذا جناح زوجه كاترين دى مديتشى التى تملأ سيرتها كثيراً من القصص الشائق ؛ وهذه غرف ولديها فرانسوا الثانى وشارل العاشر ؛ وهذا جناح هنرى الرابع ؛ ولويس الثالث عشر ، وهذا جناح الملك العظيم لويس الرابع عشر : فى تلك الغرف والأبهاء الشامخة عاشت الملوكية الفرنسية أحقابا تشرف على مصاير أمة عظيمة ، وفيها كم دبرت الأمور وكم قررت شؤون خطيرة كان لها أكبر الأثر فى سير التاريخ الأوربى ؛ كان اللوفر مدى قرنين قلب فرنسا النابض ، وأحيانا قلب أوربا بأسرها شأنه فى عهد لويس الرابع عشر

وقد كان قصر فرساى يكمل حياة اللوفر ؛ وكان فى أواخر عهد الملوكية الفرنسية ملاذها ومستقرها : هذا جناح لويس الرابع عشر الفخم ، وهذه غرفة نومه ، وهذا بهو عمله ومتزينه ، وهذا جناح الملك الخليع لويس الخامس عشر قد أثث بأثاث ما يزال إلى اليوم نموذجا فنياً رائعاً ؛ أجل وهذا جناح خليلاته دوباردى ودى بومبادور الخ على مقربة من جناح زوجه الشرعيه ، ماري لكزنسكا ، وهذه أبهاء الحفلات الباذخة التى كان ينفق عليها بغير حساب ، وكانت تثقل كاهل الشعب المسكين ؛ وأخيراً ها هوذا « بهو المرايا » الشهير الذى عقد فيه مؤتمر الصلح فى سنة ١٩١٩ وأملت فيه فرنسا وحلفاؤها الظافرون إرادتهم على ألمانيا المنهزمة ووقعت فيه ألمانيا وثيقة انكسارها وذلتها

فى هذه الربوع والمواطن الصامتة التى تغدو اليوم آثاراً يحج اليها السائح كان يكتب تاريخ فرنسا وتاريخ أوربا

* * *

على أن الأحداث والذكريات التاريخية الرائعة لم تجتمع قدر اجتماعها فى صرحين عظيمين ، هما قصر الفاتيكان فى رومة ، وقصر الدوجات فى البندقية (ڤينزيا) فأما الفاتيكان فهو بلا ريب أجل آثار النصرانية وأعظمها ؛ وفى الفاتيكان الذى غدا علماً على البابوية والكرسى الرسولى ، تتمثل عظمة البابوية ، وبذخ البابوات ، وكل ما فى عصر الأحياء من عبقرية وجمال وافتنان ؛ وليس الفاتيكان قصراً تستطيع أن تحيط برؤيته فى ساعات ، وإنما الفاتيكان مدينة من القصور الرائعة يقتضى التجوال فيها والتمتع بروائعها أياماً عديدة . وقد نشأ الفاتيكان فى أواخر القرن الرابع عشر قصراً متواضعاً إلى جانب كنيسة القديس بطرس ، وغدا من ذلك التاريخ مركز الكرسى الرسولى ، ثم تعاقب عدة من البابوات على إنشائه وزخرفته ، فأقاموا إلى جانب القصر

القديم قصوراً وأجنحة جديدة بلغت أعظم مبلغ من الفخامة والبهاء ، نخص بالذكر منها مصلى سكستوس الرابع المسمى كابيلاسستنا ، والذى خلف ميشيل آنجلو فوق جدرانه من ريشته آيات خالدات ، وجناح آل بورجيا الذى أنشأه اسكندر السادس ، وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه الأحياء من بذخ وزخرف وبهاء ؛ وجناح چوليوس الثانى (لوچى) ، وهو الذى زينه رافائيل بآيات باهرات من فنه وريشته ؛ ولبث البابوات يزيدون فى صروح الفاتيكان وفى زخرفته حتى غدا مجموعة من القصور الشامخة الباذخة ، تضم عشرات من الأبهاء والأروقة الفخمة ، وعشرات الساحات والأفنية العظيمة ، ونحو عشرة آلاف غرفة . ولا يستطيع القلم مهما أوتى من قوة أن يصف ما تزدان به تلك الصروح والأبهاء الخالدة من نقوش وزخارف وصور تأخذ الأبصار بجمالها وروعها ؛ ويكفى أن نقول إنها مثوى لأبدع وأروع ما تمخضت عنه عبقرية الجمال والفن فى أعظم وأزهى العصور

على أن روعة الفاتيكان لا تقف عند جمال الفن ؛ وإنما تمثل بنوع خاص فى ذلك الدور الخطير الذى أداه فى تاريخ النصرانية ، وتاريخ البابوية ، فقد كان الفاتيكان وما زال رأس الكنيسة المفكر وروحها المسير ، وكان مدى عصور طويلة مبعث تلك السلطة الزمنية القوية التى زاولتها البابوية مع سلطتها الروحية جنباً إلى جنب ؛ وكانت أبهاء الفاتيكان ومخادعه مسرحاً لكثير من الحوادث التاريخية البارزة ، وكانت أيضاً مسرحاً لكثير من المؤامرات والدسائس والمآسى المروعة

وليس بين صروح أوربا الأثرية كلها صرح يثير ما يثيره الفاتيكان فى النفس من روعة وإجلال وإعجاب ؛ وسيبقى الفاتيكان عصوراً علما على عظمة البابوية الذاهبة ، وسيبقى حلية الآثار النصرانية والكنسية كلها

ولنتحدث بعد ذلك عن قصر الدوجات ذلك الصرح الذى لا يدانى مظهره المتواضع بذلك الدور العظيم الذى لعبه فى تاريخ أعظم جمهوريات العصور الوسطى

كان قصر الدوجات Palazzo ducale الذى لا يزال يجثم بحناياه العربية البيزنطية وشرفاته المنخفضة بجوار كنيسة القديس مارکو على المنعطف الذى يصل بين البحر وبين ميدان سان مارکو (القديس مرقص) منزل الدوجات ومستقر الهيئات النيابية التى امتازت بها نظم البندقية فى العصور الوسطى ، مثل المجلس الأعلى ومجلس العشرة الشهير الذى يثير اسمه كثيراً من الذكريات المروعة ؛ وكان رأس الجمهورية المفكر وقلبها النابض ، يكتب فيه تاريخها وتدبر فيه أسباب قوتها وعظمتها ، وتضطرم فيه تلك الدسائس والمؤامرات الخطيرة التى تدفع بها إلى براثن المحن الدموية أو الفوضى ، وكان أخيراً حرمها المقدس وملاذ دستورها ، وسلطانها الأعلى

ومن هم أولئك الدوجات الذين سمى الصرح العتيد باسمهم ، وتوج اسمهم تاريخ البندقية الحافل من مبدئه إلى منتهاه ؟ كان الدوج (أو الدوق[1]) رئيس الجمهورية وحاكمها الأعلى ، وكان فى المبدأ يعين بالانتخاب على يد جمعيات من الشعب ، ثم أنشىء المجلس الأعلى فى القرن الثانى عشر من نواب يعينهم زعماء الولايات ، ومنهم ينتخب الدوج والوزراء وكبار القضاة ؛ وكانت البندقية جمهورية ، ولكن جمهورية ارستقراطية ، تقبض الارستقراطية على مصايرها وتستأثر فيها بالحكم والسلطان ؛ وكان الشعب يجاهد طول الوقت لكى ينتزع لنفسه تلك السلطات التى تستبد منه وتدار باسمه ؛ ولكن تلك الارستقراطية الطاغية المستنيرة معاً كانت حريصة على سلطانها وزعامتها ؛ وفى القرن الثالث عشر استطاعت الارستقراطية أن تقصى الشعب نهائياً عن كل اشتراك فى الشؤون العامة ، وذلك بأن حول المجلس الأعلى من هيئة نيابية انتخابية إلى هيئة وراثية خالدة ، وبذا قامت فى البندقية تلك الارستقراطية الوراثية القوية التى يصفها المؤرخ الفيلسوف سسموندى بقوله : « كانت فياضة الحزم والغيرة والطمع ، جامدة فى مبادئها ، راسخة فى سلطانها ، تقترف باسم الحرية طرفا من أشنع مثالب الاستبداد ، مشاكسة غادرة فى السياسة ، دموية فى الانتقام ، متسامحة مع الفرد ، باذخة فى الشؤون العامة ، مقتصدة فى الادارة المالية ، عادلة نزيهة فى القضاء ، قديرة فى إزهار الفنون والزراعة والتجارة ، محبوبة مطاعة من الشعب ؛ يرتجف النبلاء الذين تمثلهم منها فرقا » ثم اختارت

(١) من اللاتينية x D أعنى الأمير أو الدوق

الارستقراطية مجلس العشرة الشهير ، وخول سلطات استثنائية وعهد إليه بحماية الجمهورية وسحق كل جريمة وثورة يدبرها الخوارج والطامعون ، فتم بذلك للارستقراطية سلطانها المطلق ، وغدت كل شيء في نظم الجمهورية وحياتها ومصايرها

وقصر الدوجات من أقدم الصروح التاريخية يرجع بناؤه إلى نحو ألف عام ، ولكن القصر القديم أحرق وزالت معالمه غير مرة خلال الحوادث والفتن ، وأعيد بناؤه ، وتعهده الدوجات بالانشاء والزخرف حتى اتخذ شكله الحالي منذ القرن الرابع عشر ؛ وتشرف واجهة القصر الأمامية التي تذكرنا حناياها المرمرية بالمشرفيات الشرقية ، على منعطف سان ماركو ، وتشرف واجهته الخلفية على قناة من الماء ؛ ويقع في مواجهته بناء عتيق قاتم هو سجن الدولة القديم ؛ وتربط الصرحين قنطرة معلقة هي قنطرة الزفرات الشهيرة (بونتي دي سوسبيري) التي تمثل اسمها في كثير من القصص المؤسى ، والتي يقال إنها لعبت أبما دور في مصارع النبلاء والسادة ، يدفعون منها إلى السجن أو يلقون إلى الماء

وتتكون أبنية القصر من طبقات ثلاث تشرف من الداخل على فناء مستطيل واسع ، وليس في مظاهرها الخارجية كثير من الزخرف ، ولكنها تبدو قاتمة عابسة توذن بأنها كانت أيام مجدها ملاذ الكتمان والصرامة ، فاذا نفذت إلى الداخل أخذتك روعة الغرف والأبهاء الشاسعة الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بأجمل ما خلقته عبقرية الأحياء من النقوش والصور ؛ ولقد زينت شرفات الطبقة الأولى بتماثيل عدة من مشاهير الدوجات ، وزينت إحدى غرف الطبقة الثانية بطائفة كبيرة من الدروع والأسلحة القديمة التي كان يرتديها أو يتقلدها الدوجات أو قادة الجمهورية ؛ بيد أن أروع ما في هذا القصر الشهير هو الطابق الثالث حيث يوجد جناح الدوج والابهاء الرسمية التي تحيط به ؛ هذا هو بهو اجتماع المجلس الأعلى لا يزال بتقاسيمه ومقاعده الخشبية القديمة وفي صدره مقعد الدوج ؛ وهذا هو البهو الأكبر حيث تنعقد الاجتماعات الرسمية الكبرى ، وهنالك في أعماق القصر وراء هذه الأبهاء الشاسعة توجد غرفة متوسطة متواضعة أقيمت في صدرها عدة مقاعد خشبية هي غرفة اجتماع مجلس العشرة ! وهنالك بالضبط عشرة مقاعد يتوسطها مقعد الدوج ؛ وفي تلك الغرفة المتواضعة التي يخيل اليك أنها تمثل روح العصور الوسطى ، وتمثل الصرامة والغدر والسلطان المطلق معا ، كانت تبرم أهم الشؤون وأخطرها ، وتصدر أعظم القرارات في حياة الجمهورية ، ولقد زينت جدران هذه الأبهاء وسقفها بطائفة بديعة من الصور التاريخية رأينا بينها صورة لافتتاح الصليبيين والبنادقة لقسطنطينيه سنة ١٢٠٣ وموقعة لبانتو البحرية الشهيرة التي هزم فيها الترك سنة ١٥٧١

وقد عرفت مصر الاسلامية عظمة الجمهورية البندقية وعظمة الدوجات في العصور الوسطى وكانت ثمة في عصور السلام علائق ومخاطبات منتظمة بين بلاط مصر وبين قصر الدوجات ، وكان البلاط المصري يخاطب « الدوج أو الدوك » باسمه مقرونا بالقاب التعظيم والتكريم

* * *

هذه طائفة من الصروح العظيمة التي تمثل بماضيها الحافل عصوراً وأحقاباً عظيمه من التاريخ ؛ وهي بذلك صروح مثلى كالأمم والشخصيات المثلى ، لا تقف عظمتها عند تلك الأبنية الشامخة وتلك الروائع الفنية التي أسبغتها عليها عبقرية الأجيال والعصور الزاهرة ؛ ولكن أشد ما تمثل عظمتها في تلك الصفحات الخالدات التي سجلتها في بطون التاريخ ، وذلك التراث المعنوي الزاخر الذي يغمر كل ربابها وجنباتها الصامتة

محمد عبد الله عنان

وحي القلم

تم طبع الجزءين الأول والثاني من هذا الكتاب في ٨٠٠ صفحة كبيرة بحرف مشكول على ورق فاخر . وهما الآن في عمل التغليف

وسيرسل الكتاب إلى المشتركين في أوائل يناير ثم يعرض في إدارة الرسالة والمكتبات الكبيرة بالثمن الذي سيعلن عنه